(هل البقاء للأقوى أم البقاء للأنفع؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿ . . .قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:16-17].

أيها الأخ الكريم:

لو سألك اليوم سائل: من خلال قراءتك لسير الأمم ومعرفتك لدورات التاريخ واطلاعك على تراجم الملوك هل وجدت البقاء للأقوى أم كان البقاء للأنفع؟

بعد معاينتك لبعض أمور السياسة ومراجعتك لآيات الله الكونية والقرآنية هل تعتقد أن الأرض يرثها القاهرون أم أن الأرض يرثها الصالحون؟

أترى الحق للقوة أم أن القوة بالحق؟

ستجدون الجواب في هذه الخطبة، عنوان خطبة اليوم:

(هل البقاء للأقوى أم البقاء للأنفع؟)

أيها الإخوة:

في القرآن قوانين ونواميس وسنن إلهية تحكم العالم قاطبة، لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابي أحداً لأن الذي شرعها رب العالمين.

وإذا قرأنا قوانين القرآن الكريم وفهمناها وعملنا بمقدماتها حصدنا نتائجها. وإني وجدت في القرآن الكريم قانونا إلهيا يقول: **البقاء للأنفع**.

جاء هذا القانون في قول الله تعالى في سورة الرعد الآية 17 في المقطع الأخير من الآية:

﴿ . . .كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

الزبد: هو الخبث الذي يظهر على وجه الماء في السيل وكذلك يظهر على وجه القدر إذا أذيبت فيه المعادن.

إذا صهرنا المعادن في قدر يطفو على وجه السائل المعدني المذاب خبث، زبد.

يذهب جفاءً: يعني ضائعاً، متفرقاً، باطلاً، والجفاء: هو ما رمى به الوادي من الزبد، والقِدر إلى جنباته، والآية رقم 17 كاملة في سورة الرعد تقول:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

ومعنى الآية: أنزل الله من السحاب مطراً فجرى ماء الأودية بقدر حجم الوادي واتساعه فرفع السيل فيما جرف معه غثاءً ورغوةً طافيةً عاليةً فوق الماء. وبعض المعادن التي يوقدون عليها ليصهروها في النار من فلزات الحديد والنحاس والذهب والفضة لصناعة الحلي والآلات لها زبد مثل زبد السيل وهو خبث هذه الفلزات المعدنية.

هذان المثلان المذكوران –مَثَلُ السيل الذي فوقه الزبد ومَثَلُ المعادن المنصهرة التي يعلوها الزبد–هما مَثَلُ الحق والباطل وأهلهما.

فأما الزبد الطافي فيزول مرمياً، وأما ما ينفع الناس من الماء والمعادن والحق فيبقى في الأرض زماناً وينتفع به أهلها.

فالباطل كالزبد فوق الماءِ والمعدنِ المذابِ يذهب ويتبدد، والحق يبقى في الأرض كالماء والمعدن الصافي ينتفع منه الناس.

فالقانون يقول: الباطل وإن علا فإنه سيضمحل، ويقول: للباطل صولة وللحق دولة. ويقول: ما كان لله يبقى ويدوم وما كان لغير الله يذهب ويزول. ويقول: جولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

جاء في تفسير الشعراوي: (ساعة أن يطفو الغثاء فإياك أن تفهم أن ذلك علو، إنه علو إلى انتهاء، كذلك فورة الباطل.

وإذا ما ارتفعت رؤوس الباطل فهذا دليل على أن قطافها قد حان؛ لأن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث في الأرض).

قال المفسرون: (ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة. فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً ولكنه بعدُ زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه.

والحق يظل هادئاً ساكناً. وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات. ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي والمعدن الصريح، ينفع الناس.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، وكذلك يقرر الله مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات ومصائر الأعمال والأقوال. وهو الله الواحد القهار، المدبر للكون والحياة، العليم بالظاهر والباطن، والحق والباطل والباقي والزائل).

حدث مرة أن التقى الحق بالباطل، فقال الباطل للحق: أنا أقوى منك، قال الحق: أنا أثبت منك، قال الباطل: أنا أسرع منك ظهوراً، قال الحق: لكني أطول منك بقاءً، قال الباطل: سأقتلك، قال الحق: لكن أبنائي سيقتلونك. البقاء للأنفع.

أيها الإخوة:

مرت حقبة على الناس اعتقدوا فيها -ولعل بعضهم لا يزال يعتقد إلى اليوم- أن البقاء للأقوى. الأقوى مالاً هو الذي سيبقى، الأقوى سلاحاً هو الأبقى، الأقوى علماً هو الأبقى، الأقوى إعلاماً هو الذي سيبقى، لكن القرآن يخطئهم جميعاً ويقول أن الذي ينفع الناس هو الذي يمكث في الأرض.

والناس عامة في الأرض لا يتبعون إلا قوياً أو نبياً، أما أتباع الأقوياء فيذهبون، وأما أتباع الأنبياء فباقون, لأن البقاء للأنفع.

أين أتباع الأكاسرة؟ أتباع القياصرة، أتباع الملوك، أتباع الألوية؟ أتباع الأقوياء يذهبون، وأتباع الحق يبقون ببقاء مبادئهم.

عندما ظهرت نظرية التطور في القرن التاسع عشر في كتاب صاحبها داروين الذي سماه أصل الأنواع ذكرت النظرية:

أن منشأ جميع الأحياء من أصل واحد، وأن الحياة جاءت صدفة، وأن في الطبيعة صراعاً لأجل البقاء، وأن الأقوى هو الذي يبقى وأن الأضعف ينبغي أن يزول أو يُزال، وأنه لا يوجد خلق ولا إله.

ومرت الأيام وجاء هيغل الألماني وهو من رموز التطوريين فأشار وفقاً لنظرية التطور والبقاء للأقوى أنه ينبغي قتل جميع الأطفال المولودين عاجزين وينبغي قتل جميع المرضى المزمنين بدون رحمة لأن هؤلاء يعيقون المجتمعات وتطورها.

يقول هيغل في أحد كتبه: مئات آلاف المرضى الذين يستحيل شفاؤهم: مثلاً المرضى العقليين، المجذومين، مرضى السرطان، -والكلام له- يبقون على قيد الحياة بشكل اصطناعي لكن هذا لا يأتي لهم أو لعامة المجتمع بأية فائدة، للتخلص من هؤلاء الرديئين يجب إعطاؤهم سماً فعالاً سريعاً بقرار لجنة مسئولة ومراقبتها. لأن البقاء للأقوى فالضعاف لا ينبغي أن يبقوا على هذه الأرض.

وبالفعل أقر هتلر فكرة هيغل وقتل آلاف البشر من هؤلاء.

ومرت الأيام وجاء العلم لينقض نظرية التطور وكلما تقدم العلم انهارت أجزاء هذه النظرية وبقي القرار الإلهي والقانون الرباني أن البقاء للأنفع وليس للأقوى، فالبقاء للأنفع قانون عام.

ففي المبادئ والشرائع البقاء للأنفع:

فقد مرت على هذه الأرض فلسفات ومبادئ وأفكار لا يحصيها عداً إلا الله، المزدكية والمانوية والقرامطة والملاحدة والفاشية والماسونية والشيوعية والليبرالية والإباحية والرأسمالية والوجودية وغيرها ذهب كثير من هذه المبادئ جفاءً لأنه زبد، وبعضها آيل للسقوط والذهاب لأنه لم ينفع الناس ولن ينفعهم، وحده دين الله بقي ماكثاً في هذه الأرض.

مع كل العداء الذي كان والعداء الذي ترون، مع كل هذا التكالب، لا يزال الإسلام ماكثاً في الأرض، لأنه جاء لينفع الناس ليسعدهم في الدنيا وفي الآخرة.

ألف سلطان العلماء العز بن عبد السلام كتاباً مؤلفاً من مجلدتين جاوز الستمائة صفحة سماه: "قواعد الأحكام في مصالح الأنام" تحدث فيه أن الشريعة كلها تدور على قاعدة واحدة هي جلب المصالح ودرء المفاسد. الشريعة كلها تدور على جلب المنافع للناس ودفع المضار عنهم.

فربنا عندما حرم القتل والاعتداء على الأموال والأعراض والأنفس وحرم الخمرة المسكرة, والربا, وعقوق الوالدين, والشرك بالله, وسائر المحرمات حرمها لأنها تجلب ضرراً.

وربنا عندما فرض العدل وإنصاف الضعيف ونصرة المظلوم والصوم والزكاة والعلم والذكر والصلاة وسائر المفروضات فرضها لأنها تأتينا بمنافع كثيرة.

الشريعة الإسلامية كلها قائمة على جلب المصالح وعلى درء المفاسد.

البقاء للأنفع قانون عام في المبادئ والشرائع.وفي التجارات والصناعات البقاء للأنفع.

التاجر الذي يسافر إلى الصين ليستورد منها سلعاً ظاهرها الجمال وباطنها العطب ظاناً أنه سيربح ربحاً وافراً هذا الرجل سيربح اليوم لكنه سيخسر غداً، لأن البقاء للأنفع، سيسيء لاسمه وسمعته ولن يورث أولاده إلا أن يقول الناس: كان أبوكم غشاشاً. البقاء للأنفع.

ولو جاءنا ببضائع ظاهرها وباطنها الإتقان لربح الآن ولربح غداً ولربح أولاده من اسمه ولربح أحفاده من اسمه.

كم من شركة تجارية أو صناعية اليوم يعمل الأبناء فيها بأسماء أجدادهم لأن الأجداد نفعوا فبقي الاسم محفوظاً.

كذلك في الصناعة البقاء للأنفع:

أنا أعتقد أن الصناعي الذي يتجه نحو الصناعات التي تنفع الناس سيبني له ولأولاده ولأحفاده من بعده اسماً يربحه ويربحهم في الأرض وفي السماء.

بينما الذي يتجه نحو الصناعات الحاوية على ضرر وإن كان في ظاهرها الربح الكبير لكنه زَبَد يزول عما قريب.

فمثلاً: منتجو أطعمة الأطفال لو توجهوا بصناعاتهم نحو الأغذية الطبيعة كالبطاطا والذرة والحمص والفستق وقصب السكر ونحوها فإنه خير لهم ولأولادنا من الأطعمة المهدرجة والملونة والمنكهة بالكيميائيات، لأن الناس عاجلاً أم آجلاً سيتركون الزَّبَدَ وسيذهبون نحو النفع، والقانون يقول البقاء للأنفع.

البقاء للأنفع قانون عام في الأدب والفنون:

فالروايات الهابطة، والشعر البذيء، والأغاني الساقطة، والموسيقى المزعجة، والمسلسلات الضارة غير النافعة هذه زَبَدٌ سيذهب جفاءً عاجلاً أم آجلاً.

ولو استبدلت بها روايات أدبية، وشعر نضالي وفكري رصين، وأناشيد وطنية وأخلاقية، ومسلسلات عفيفة تربوية وأخلاقية لكان خيراً للأدب وخيراً للفن وخيراً للناس ولأن البقاء للأنفع. البقاء للأنفع قانون عام.

ففي الحرف والمهن اليدوية البقاء للأنفع، في مناهج التربية والتعليم البقاء للأنفع، في العلم والآداب وفي السياسة والحكم البقاء للأنفع، في كل شؤون الحياة البقاء للأنفع.

أيها الإخوة:

هذا قانون لا يتغير ولا يتبدل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد:17]. ومِمَّا يزيدك تأكداً من هذا القانون قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:105].

في نهاية هذه الخطبة المطلوب أمران:

الأول: اعمل ما استطعت في النافعات.

أينما كنت وحيثما اتجهت توجه إلى النافعات، ابحث عن العلم النافع، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَعُوْذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَاْ يَنْفَع)) [رواه مسلم].

ابحث عن العمل النافع، إذا أردت أن تعمل أن تتاجر، أن تزارع، أن تساقي، أن تصانع ابحث عن الشيء الذي ينفع الخلائق فتكسب في الأرض وتكسب في السماء.

ابحث عن الصديق النافع، عن المجلس النافع، أينما كنت ما استطعت اعمل في النافعات.

الثاني: مهما استطعت أن تنفع الناس فافعل.

فأنت كبير كلما نفعت الآخرين وكلما قلَّ نفعك قلَّ حجمك عند الله تعالى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**مَن اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَل**)) [رواه مسلم].

والحمد لله رب العالمين